

منهج الدكتور محمد عبد الله دراز في تقرير عقيدة السلف من خلال تفسيره للقرآن الكريم

الباحث/ ماضي بن فالح هندي الهاجري[*]



المقدمة:

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله - تعالى- من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

(*) طالب دكتوراه – في قسم الشريعة الإسلامية – بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة.

أما بعد:

فإن كانت العلوم تقاس بشرف موضوعها، فموضوع علم العقيدة أشرف الموضوعات؛ ذلك لأنه يختص بالبحث في ذات الله -سبحانه وتعالى- من حيث إثبات وجوده، وفيما ينبغي أن يتصف به —سبحانه- من صفات الكمال، وما يتنـــزه عنه -تعالى- من صفات النقص، ويبحث أيضا فيما يجوز في حقه —سبحانه- من إرسال الرسل وكل ما يتعلق بأمور الآخرة من بعث وجنة ونار...إلخ.

وأعظم ما يهتدى به في ذلك من حيث المعرفة والحكم والحجة هو كتاب الله – تعالى–، فإن أفضل ما اشتغل به المشتغلون من العلوم، وأفنيت فيه الأعمار، ووجهت إليه الهمم، هو: كتاب الله – تعالى–؛ حبل الله المتين، من تمسك به هدي، ومن اهتدى بنوره رشد، ولقد كان محل العناية من هذه الأمة منذ نـــزوله على محمد ﷺ إلى وقتنا هذا، واتخذت هذه العناية أشكالًا كثيرة، فمنها ما يرجع إلى لفظه وأدائه، وأخرى إلى أسلوبه وإعجازه، وثالثة إلى كتابته ورسمه، ورابعة إلى تفسيره وشـــرحه.

وقد مضى زمن النبي ﷺ والمسلمون على عقيدة واحدة هي ما جاء في كتاب الله – تعالى– والسنة المطهرة، وكذلك كان الحال في زمن صحابته من بعده، لأنهم أدركوا زمن الوحي فأزال عنهم ظلم الشكوك والأوهام، واستقرت هذه العقيدة فيمن سار على منهجهم وهي عقيدة السلف الصالح.

إن ممن اعتنى بدراسة كتاب الله – تعالى– وتفسير آياته وآيات العقيده فيه، الشيخ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز – رحمه الله–، وهو أحد علماء هذا العصـــر العظام، ممن ذاع صيته، واشتهر ذكره.

ولقد كان محمد عبد الله دراز نمطًا فريدًا، وشخصية نادرة فيما يكتب، إنه يؤثر البحث الهادئ دون عجلة، ويضع الخطة المحكمة دون تســـرع، ولا يهمه طال الأمد أو قصـــر.

لقد كانت أهم سمة من سمات شخصية دراز، والمنبع الذي فاضت منه كل مآثره العلمية والعملية، هي: الوَلَه بالقرآن الكريم. كان رجل القرآن بحق، فقد ملكت محبة القرآن لبه، وشغفت قلبه، فكان شغله الشاغل، لا يكاد يُرى إلا وهو منكب على قراءته وتدبُّره، أو قائم يصلي به.

وقد انصب اهتمامه العلمي على القرآن حصـــرًا، فلا يكاد يوجد له عمل علمي إلا والقرآن محوره ولبابه. ولا يستطيع دراز كفكفة عشقه لكتاب الله وتعلقه القلبي به، فهو يتتبَّع ألفاظ القرآن تتبع الوالِهِ، ويصفها بحق بأنها «حبات درية».

وعليه.. فقد جاء هذا البحث ليستخرج ويستنبط جهود الدكتور محمد عبد الله دراز في موضوع من موضوعات تناوله لتفسير القرآن الكريم وهو تقرير عقيدة السلف من خلال تناوله لآيات الاعتقاد.

أسباب اختيار الموضوع:

أهم الأسباب التي دعتني إلى اختيار هذا الموضوع يمكن إيجازها فيما يلـــي:

١- أن الشـــيء يشـــرفُ بشـــرف ما يتعلق به، ولا أشـــرف من تأمل كلام الله، وفهم معانيه، ويتصف به – سبحانه- من صفات الكمال، وما يتنـــزه من صفات النقص وما يجوز في حقه –سبحانه-.

٢- إبراز علم الآيات العقدية وإظهار أثر ذلك في اهتمام الدكتور عبد الله دراز أثناء تناوله آيات الاعتقاد في تفسيره.

٣- اهتمامه بمسائل العقيدة، وأصول التفسير؛ إذ له اجتهاداته وتقريراته واختياراته؛ كعادته في تناول مسائل العلوم الشـــرعية.

٤- تعد مؤلفات الدكتور دراز مرجعًا مهما لكثير من الباحثين في الوقت الحاضـــر.

الدراسات السابقة:

١- الدكتور محمد عبد الله دراز ومنهجه في البحث الخلقي: الدكتور محمد رجب البيومي. وهي عبارة عن رسالة ماجستير مقدمة لكلية اللغة العربية، جامعة الأزهر.

٢- الدكتور محمد عبد الله دراز وجهوده في تقرير العقيدة الإسلامية: موضي بنت سليمان بن علي الكريدا، وهي رسالة ماجستير بكلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة والأديان، جامعة أم القرى.

٣- مؤلفات الشيخ أحمد مصطفى فضلية عن الدكتور دراز، وهي:

١- محمد عبد الله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه.
٢- محمد عبد الله دراز سيرة وفكر.
٣- محمد عبد الله دراز جولة في فكره الموسوعي.
٤- حول رسالة دستور الأخلاق في القرآن.
٥- حصاد قلم.
٦- أوراق محمد عبد الله دراز.

منهج البحث والخطوات المتبعة في البحث:

اتبعت في إعداد هذا البحث جملة من الخطوات المنهجية أبينها على النحو التالي:

١) الوقوف على مؤلفات الدكتور محمد عبد الله دراز.
٢) جمع المادة العلمية: بعد قراءتي لما وقع في يدي من مؤلفات الدكتور دراز، جعلت لكل موضوع من موضوعات هذه الخطة ملفا خاصا، ثم قُمتُ بالجمع الدقيق لكلام الدكتور - رحمه الله- المتعلق بعلوم القرآن؛ وذلك من خلال المصادر التالية:
٣) كتاباته في التفسير وعلوم القرآن.
٤) أقواله في التفسير وعلوم القرآن من خلال كتبه الأخرى، وهي: (كنوز السنة

النبوية، الدستور الأخلاقي في القرآن،... وغيرها).

٥) تحليل المادة العلمية: عَمِدْتُ إلى تحليل المعلومات التي جمعتها في الملفات، مستنبطًا منها جهود الدكتور دراز في علوم القرآن.

٦) عند تعرضـــي لمسائل علوم القرآن ذكرتُ ما أورده الدكتور؛ مع بيان اختياراته في تلك المسائل.

٧) قُمْتُ بعزو الآيات الواردة في البحث إلى سورها، مبينًا رقم الآية، واسم السورة في ثنايا البحث؛ رغبة في عدم إثقال الحواشي.

٨) خرّجتُ الأحاديث، فإن كان في الصحيحين، أو في أحدهما اكتفيت به، وإن كان في غيرهما خرّجته من مظانه، ونقلت حكم العلماء عليه.

خطة البحث:

يتناول الباحث هذا الموضوع من خلال مبحثين وخاتمة على النحو التالي:

المبحث الأول: قواعد وضوابط في تفسير آيات الاعتقاد.

المبحث الثاني: منهجه في تقرير عقيدة السلف

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف العقيدة لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: تعريف السلف لغة واصطلاحًا.

المطلب الثالث: منهج الدكتور دراز في تقرير عقيدة السلف.

الخاتمة.

أهم المراجع.

* * *

المبحث الأول
قواعد وضوابط في تفسير آيات الاعتقاد

تقعيد المسائل وتأصيلها؛ منهج علمي سلكه المحققون من أهل العلم في جميع العلوم الشرعية، ومن ذلك الجانب العقدي، ولأهل السنة –رحمهم الله –تعالى– – باع في ذلك؛ إلا أن أكثر ما كتب فيه هو في قواعد الأسماء والصفات.

ومن خلال قراءتي لتراث الشيخ الدكتور دراز – رحمه الله–، وجدت حرصه الشديد على ضبط المسائل وتقعيدها؛ بحيث تعين القارئ على فهم المسألة بوجهها الصحيح. ومن خلال تتبعي لهذه القواعد، وتلك الضوابط في مسألة العقيدة، وقفت على عدد لا بأس به منها، وهي:

(١)

له أن يتعبدنا بما شاء، مما نعقل مصلحته ومما لا نعقل

هذه القاعدة ذكرها في معرض كلامه عن الحروف الهجائية في افتتاح بعض السور؛ حيث قسَّم أقوال العلماء فيها إلى ثلاثة أقوال: فقال: "القول الأول: وهو مذهب الشعبي، والثوري، وجماعة من المحدثين، ومروي عن الخلفاء الأربعة، وابن عباس – رضي الله عنهم–: أننا لا نعرف عن أمر هذه الفواتح إلا ما يعرفه كل أحد من أنها أرسام هجائية لحروف المباني، وأن الله أمرنا عند تلاوة بعض السور أن ننطق في افتتاحها بتلك الأسماء لحكمة يعلمها هو، فما علينا إلا السمع والطاعة لأمره؛ لأن **له أن يتعبدنا بما يشاء مما نعقل مصلحته وما لا نعقل**، كما أمرنا في الحج والصلاة والكفارات بأعداد خاصة وأوضاع معينة لا ندرك الحكمة من تحديدها، وكما أمر إبراهيم بذبح ولده فأذعن واستسلم، ولا شك أن **تمام الاختبار بصدق الإيمان: تكليف المؤمن بعمل لا يعرف وجه المصلحة فيه؛ لأن الطاعة في الأمور المجهولة**

الحكمة أقرب إلى تحقيق العبودية والإخلاص منها في الأمور المعقولة المعنى"[1].

(٢)

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾

أورد هذه القاعدة عند تفسيره لسورة الفاتحة؛ حيث قال عند قوله —سبحانه-:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾:"بإجماع هاتين الكلمتين بطل الشرك كله:

- شرك العبادة لغير الله.
- وشرك الاستعانة والاستشفاع بما لم يأذن به الله.

وبإجماع هاتين الكلمتين بطلت العقائد المتطرفة كلها:

- عقيدة الجبر المحض الذي ينكر قدرتنا ومسئوليتنا.
- وبطلت عقيدة الاختيار المحض الذي يدعي الاستغناء عن معونة ربنا.

فنحن نعمل ونتوكل، نعبد ونستعين.

نعبد أولًا، ونستعين ثانيًا.. نؤدي واجبنا، ثم نطالب بحقوقنا.."[2].

(٣)

دعائم الاعتقاد ثلاثة

تكلم في تفسيره لسورة البقرة عن معنى "الكتاب"، وكيفية هدايته للخلق، فذكر أن هذا الكتاب جاء من أجل: إصلاح العقيدة، وإصلاح السلوك. ثم بيّن أن سورة البقرة تدور حول هذين المقصدين، ثم تكلم عن المقصد الأول وهو صلاح العقيدة، فقال في أثنائه: "... الداعي الحكيم يبدأ بتحليل هذه **الدعوة إلى عناصرها الاعتقادية الثلاثة:**

(١) ينظر: حصاد قلم (ص٣٦، ٣٧).
(٢) ينظر: حصاد قلم (ص١٠٢).

- توحيد المعبود.
- والإيمان برسالته.
- والإيمان بضرورة الاستعداد.

ونراه لا يدع واحدًا من هذه العناصر إلا بعد أن يدعمه بدعامة قوية مقنعة.

أما "توحيد المعبود": فإن مؤهلات الألوهية لا توجد إلا في واحد لا ند له؛ ذلكم هو الرب الأعلى الذي خلقنا وخلق أصولنا: ﴿خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة من الآية: ٢١]، والذي أنشأ لنا مسكننًا إنشاءً، فرشًا وسقفًا وبناءً: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، والذي رزقنا وأنشأ مادة رزقنا: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة من الآية: ٢٢]، فإذا كان هو الذي يخلق ويرزق، فكيف نسوي به من لا يخلق ولا يرزق؟!﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة من الآية: ٢٢].

وأما "الإيمان بأن القرآن هو رسالة السماء": فذلك أنه لو كان من عند غير الله لاستطاع أحد من الناس أن يأتي بمثله، أو بشيء من مثله، فإن لم يستطعه مستقلًا استطاعه مستعينًا بغيره؛ ولكن القرآن يتحدى الناس جميعًا إن كانوا في ريب وشك من مصدره أن يستعينوا على محاكاته بكل من يحضرهم من الخلق، كائنًا من كان: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة من الآية: ٢٣]، ثم يعلن مقدمًا عجزهم جميعًا عن معارضته: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة من الآية: ٢٤]، ويقول في موضع آخر: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وأما "ضرورة الاستعداد ليوم الحساب": فإنها تتفرع عن هاتين القاعدتين. كما تتولد النتيجة عن مقدماتها.

ذلك أننا متى عرفنا الله بكمال قدرته، وجاءنا إنذار قوي يحمل طابع سلطانه

وعظمته، لا يسعنا إلا الاعتراف بأنه لابد منجز ما وعد، وأننا لن يجيرنا من الله أحد؛ إلا أن نعمل عملاً نستوجب به رضاه، ونستدفع به غضبه: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى ﴾ [البقرة من الآية: ٢٤]"[1].

(٤)

زيادة الإيمان ونقصانه

وردت نصوص القرآن مصرحة بزيادة الإيمان؛ كقوله – تعالى– : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [التوبة من الآية: ١٢٤]، وقوله –تعالى– : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثرمن الآية: ٣١].

و لم يرد في القرآن التصريح بلفظ النقص[2]؛ وإنما ورد ذلك في السنة، وهو حديث: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»[3].

قال ابن تيمية: "وبهذا استدل غير واحد على أنه ينقص"[4].

وكون الإيمان يزيد وينقص مشهور عند سلف الأمة من الصحابة والتابعين[5].

وبتقرير هذه القاعدة نستدل على نقص الإيمان من القرآن أيضًا بدلالة التضمن؛ إذ ما من شيء يزداد إلا ويعلم عقلاً أنه ينقص.

* * *

* * *

(١) ينظر: حصاد قلم (ص١١٥-١١٧).
(٢) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٥٠٦/٧).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحيض، باب: ترك الحائض الصوم(٦٨/١) رقم (٣٠٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (رقم ٧٩)، من حديث ابن عمر – رضي الله عنهما–.
(٤) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٥١/١٣).
(٥) ينظر: السابق (٢٢٤/٧).

المبحث الثاني
منهجه في تقرير عقيدة السلف

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف العقيدة لغة واصطلاحًا

تعريف العقيدة لغة:

كلمة "عقيدة" في اللغة تأتي على عدة معان، منها:

الربط، والإبرام، والإحكام، والتوثق، والشدة بقوة، والتماسك، والمراصة، ومنه اليقين والجزم(١).

يقول الزبيدي: "عقد الحبل والبيع والعهد، يعقده، عقدًا، فانعقد: شده.

والذي صرح به أئمة الاشتقاق: أن أصل العقد نقيض الحل، عقده يعقده عقدًا وتعقادًا، وعقده، وقد انعقد، وتعقد، ثم استعمل في أنواع العقود من البيوعات، والعقود وغيرها، ثم استعمل في أنواع العقود من البيوعات، والعقود وغيرها، ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم.

وفي اللسان: ويقال: عقدت الحبل فهو معقود، وكذلك العهد، ومنه عقدة النكاح، وانعقد الحبل انعقادًا. وموضع اعقده من الحبل: معقد، وجمعه: المعاقد. وعقد العهد واليمين، يعقدهما عقدًا وعقدهما: أكدهما"(٢).

ولا شك أن تلك المعاني اللغوية المتعددة متقاربة في مدلولها ومعناها؛ وإن تباينت في حروفها ومبناها.

---

(١) ينظر: القاموس المحيط: مادة- عقد (١/٣٠٠).

(٢) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس: الزبيدي مادة عقد (٨/٣٩٤). تحقيق: مجموعة من المحققين.

العقيدة اصطلاحًا:

والعقيدة الإسلامية عند الإطلاق تنصرف إلى العقيدة الصحيحة عقيدة أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

المطلب الثاني: تعريف السلف لغة واصطلاحًا

السلف في اللغة:

سلف يسلف سلفًا، مثال طلب يطلب طلبًا، أي: مضى وتقدم، والقوم السلاف: المتقدمون. وسلف الرجل: آباؤه المتقدمون، والجمع أسلاف وسلاف(١).

وفي الاصطلاح:

إذا أطلق السلف عند علماء الاعتقاد؛ فمرادهم: من كان على هدي الرسول ﷺ وأصحابه علمًا واعتقادًا وقولاً وعملاً. فمنهجهم أسلم وأحكم من منهج مخالفيهم.

فتقرير منهجهم، والرد على مخالفيهم من أفضل القربات؛ إذ به يتبين صحة المعتقد وسلامته، ويوجد عند المفسرين — رحمهم الله- من خالف منهج السلف خاصة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، فوقعوا في تأويلها، وهناك من المفسرين ممن التزموا بمنهج السلف — رحمهم الله- عند تفسيرهم لكتاب الله، وهم كثر —ولله الحمد- قديمًا وحديثًا.

المطلب الثالث: منهج الدكتور دراز في تقرير عقيدة السلف

حظيت العقيدة الإسلامية عند الدكتور محمد عبد الله دراز حضورًا كبيرًا في ثنايا مؤلفاته القرآنية؛ حيث تحدث فيها عن أركان العقيدة، وقضاياها الثلاثة الكبرى: الألوهيات، والنبوات، والسمعيات؛ سواء كان حديثا تحليليا أو موضوعيا.

وكان منهجه فيها مسايرًا لمنهج القرآن الكريم، الجامع بين خطاب العقل والعاطفة

(١) ينظر: الصحاح (٥/٦٢)، القاموس المحيط: مادة-سلف.

معًا، والوارد لاستدلالات القرآن في بناء العقائد، وتصحيح الأفكار، وغربلة الشبهات.

ولقد صرح مرارًا بأنه يتخذ من القرآن نقطة انطلاق[١]، أو لندع القرآن "يدافع بنفسه عن نفسه"[٢]، أو قوله: "لنستنطق القرآن الذي رضيه الملحدون حكمًا بيننا وبينهم"[٣]، وغير ذلك مما يدل أن دراز كان شغوفًا بمنهج القرآن الكريم بيانًا للعقائد، واحتجاجًا لها.

ومع أن الشيخ دراز – رحمه الله- كان ينتسب – ظاهريا- للمذهب الأشعري الذي كان – ولا يزال- يمثله الأزهر آنذاك؛ إلا أن عشقه القرآن، وكثرة رجوعه إليه، كان قد رسم طبيعة القضايا العقدية التي اهتم بها، وحدد له الطرق والمناهج التي تدرس قضايا العقيدة والفلسفة والفكر الإنساني بها، فقد طبع بطابع القرآن، وتحرر في كثير من آرائه من أسر الفكر المذهبي؛ بل وأبرز جوانب عدة سلوكية وعملية مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بلب العقيدة، كان جلة المفكرين قد تناسوا ذكرها أو دراستها.

ومما ذكره على سبيل المثال:

أولا: الاستدلال بالعقل مع النقل، واستعمال الأقيسة المنطقية الصحيحة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فإنه موافق لصريح المعقول وإن العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح؛ ولكن كثيرًا من الناس يغلطون إما في هذا وإما في هذا، فمن عرف قول الرسول ﷺ ومراده كان عارفًا بالأدلة الشرعية وليس من المعقول ما يخالف المنقول، وكذلك العقليات الصريحة إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحًا لم تكن إلا حقًا لا تناقض شيئًا مما قاله الرسول ﷺ "[٤].

---

(١) ينظر: دستور الأخلاق في القرآن (ص١٣).
(٢) ينظر: مدخل إلى القرآن الكريم (ص١٤).
(٣) ينظر: النبأ العظيم (ص٩٠).
(٤) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٢/٨٠، ٨١).

وقال أيضًا: "العقل يدل على صحة السمع، والسمع يبين صحة النقل، ومن سلك أحدهما أفضى به إلى الآخر"(١).

ثانيا: إيراد التقسيمات في القضايا العقدية تقريبًا لمعناها:

ومن أمثلة ذلك قوله:

- أقسام الناس في مسألة أعمال العباد.
- الرحمة تنقسم إلى عامة وخاصة.
- الربوبية عامة وخاصة.

ولنشرع –الآن– في ذكر منهجه في بعض مسائل العقيدة الثلاث:

أولاً: منهجه فيما يتعلق بمعرفة الله –تعالى– :

يرى الدكتور دراز أن هناك العديد من الدلالات لمعرفة الخالق –جل وعلا–، وإثبات وحدانيته، ومن ذلك:

١- طريق النظر في المخلوقات:

إن النظر إلى هذا الكون البديع الخلق، وما حواه من مخلوقات وكائنات عجيبة على اختلاف أنواعها، وتعدد أشكالها، وتباين أوصافها، ليشهد أن له خالقًا أوجده، ومبدعًا أتقنه، ومدبرًا أحكم أمره وتسييره، قال –تعالى–: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة من الآية: ١١٧]، وقال –سبحانه–: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف من الآية: ٥٤].

وإن المتأمل في الكتاب العزيز ليجده غنيًا بالآيات الكونية، وحافلاً بالدلائل القطعية الداعية إلى التفكر والتدبر، فيما هو محسوس ومشاهد في الآفاق والأنفس، وفي ذلك

(١) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٤٥/٦ بتصرف يسير).

دلالة على عظم الخالف وكمال قدرته وسعة علمه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت من الآية: ٥٣] إلى غير ذلك من نصوص كثيرة دالة على هذا المعنى.

ويقول الدكتور دراز في ذلك: "إن القرآن يدعونا دائمًا إلى الإيمان عن طريق النظر المستقل، والتفكير الحر في الآيات والأدلة: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [يونس من الآية: ١٠١]، وقوله -تعالى- : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، ثم نراه يصف دعوته إجمالاً بأنها دعوة مستنيرة، قائمة على النور والبصيرة: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [يوسف من الآية: ١٠٨].

بل تراه يلخص وصاياه لطالبي الوصول إلى الحق في وصية واحدة رئيسية: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ ﴾ [سبأ: ٤٦]"(١).

٢- دليل الخلق والإيجاد:

فإن هذه العوالم العلويات والسفليات لا بد لها من مُوجِد أوجدها ويتصرف فيها ويدبرها، ومحال أن توجد بلا موجد، ومحال أن توجد نفسها.

يقول د. دراز: "هذا الدليل يستند في أصله إلى مبدأين مرتكزين في بداهة العقول، وهما:

قانونا "السببية، والغائية".

وأنهما متى فهما على كمالهما انتهيا إلى أسمى العقائد الدينية: عقيدة التوحيد، والخلود.

---

(١) ينظر: نظرات في الإسلام: محمد عبد الله دراز (ص١٦، ١٧)، الطبعة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

أما قانون السببية: فيقرر أن شيئًا من (الممكنات) "لا يحدث بنفسه من غير شيء"؛ لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، "ولا يستقل بإحداث شيء"؛ لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئًا لا يملكه هو، كما أن الصفر لا يمكن أن يتولد عنه عدد إيجابي، فلا بد له في وجوده وفي تأثيره من سبب خارجي إن لم يكن موجودًا بنفسه احتاج إلى غيره، فلا مفر من الانتهاء إلى سبب ضروري الوجود يكون هو سبب الأسباب.

وأما قانون الغائية فمن موجبه أن كل نظام مركب متناسق مستقر لا يمكن أن يحدث من غير قصد، وأن كل قصد لابد أن يهدف إلى غاية، وأن هذه الغاية، إذا لم تحقق إلا مطلبا جزئيا إضافيا منقطعا، تشوقت النفس من ورائها إلى غاية أخرى؛ حتى تنتهي إلى غاية كلية ثابتة هي غاية الغايات"(1).

وفي ذلك يقول الله – سبحانه وتعالى- في مقام إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وكثيرًا ما يرشد الله – تبارك وتعالى- عباده إلى الاستدلال على معرفته بآياته الظاهرة من المخلوقات العلوية والسفلية، كما قال -تعالى-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤].

---

(١) ينظر: الدين: محمد عبد الله دراز (ص١٠٥).

٣- دلالة الإحكام والإتقان:

فكما يدل المخلوق على الله؛ فإنه يدل أيضًا من جهة ما يظهر في المخلوقات من النظام المحكم، وأنها إنما وجدت لتحقيق غايات محددة، وأن ذلك لا يمكن أن يوجد لها لذاتها أو من غير سبب، فلا بد أن يكون لها موجد.

وفي ذلك يقول د. دراز: "يا سبحان الله! أليست وحدة النظام بين هذه الكتائب المختلفة الطبيعة، المتنوعة العمل، من الكائنات السماوية والأرضية، آية على وحدة القيادة العامة التي تشرف عليها، وعلى وحدة الخطة المرسومة التي يسير على هداها كل جهاز من أجهزة هذه الآلة الكبرى؟ ثم يقول إن هذا الشوق الغريزي إلى الأزلي الأبدي، له دلالتان عميقتان:

إحداهما: دلالته على مطلوبه؛ كدلالة الأثر على صانعه، أو الخاتم على طابعه.

وثانيهما: دلالته على أن في الإنسان عنصرًا نبيلاً سماويًا خلق للبقاء والخلود"(١).

هذا التقدير هو المقصود في قول الله -تعالى- : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله -تعالى- : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[الرعد من الآية: ٨]، وقوله -تعالى- :﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك من الآية: ٣].

وجميع هذه الآيات تدل على أن الانتظام في المخلوقات هو مقتضى تقدير الله وتسويته لها، وأنه لا يمكن أن يتحقق الانتظام في المخلوقات من غير مدبر، كما لا يمكن أن يكون هو مقتضى طبائع الأشياء في ذاتها دون أن يكون لها خالق، وهذا يقتضي وجود الخالق —سبحانه وتعالى- .

---

(١) ينظر: الدين (ص٩٧ بتصرف).

موقف المشركين من الاعتراف بوجود إله أعظم:

لم ينكر المشركون توحيد الربوبية؛ بل أقروا به، واحتج الله عليهم بهذا الإقرار، وألزمهم به بتوحيد الألوهية، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

وقد ذكر الدكتور دراز في ذلك: والواقع أنه حتى العرب المشركين كانوا يعترفون بوجود إله أعظم، خالق للكون، ومدبر لشؤونه، قال -تعالى- :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، هذا الاعتراف توجد نواته الأولى في أعماق النفس الإنسانية، قال -تعالى- : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وهذه الديانة الفطرية كما يسميها القرآن: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [الروم من الآية: ٣٠]، لم تكن إلا فكرة نظرية محجوبة ومغمورة في الواقع تحت معتقدات وعبادات كانت تؤدي إلى عدد لا يحصى من الآلهة، فهم لا يدعون الله الواحد إلا إذا ألم بهم خطر كبير، قال -تعالى- : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس من الآية: ٢٢].

ثم قال: فأهل الكتاب نجحوا هم أيضًا في الجمع بين توحد الله الخالف وبين عدد من الآلهة الأخرى المعبودة، فمع هؤلاء وأولئك، وضد هؤلاء وأولئك، استند القرآن على العقيدة الأولى لهدم العقيدة الثانية، إنه يأخذ باعتراف خصومه هؤلاء ليثبت لهم جحودهم بهذا الإشراك، قال -تعالى- : ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ

يَصِدُّونَ * وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٧، ٥٨]، وهذا الخلط؛ فضلًا عن منافاة ذلك للعقل، فالوحدة الدينية التي يدعو إليها القرآن تنبني على فكرة كانت موجودة من قبل وقائمة بالفعل؛ ولكنها مغمورة تحت أنقاض الأفكار المناقضة، فيستخرجها القرآن من بين هذا كله ويعيد إليها صفاءها وينقيها من كل شائبة، وهو بهذا لا يخترعها ولا يكتشفها، فطريقته — إذن– قائمة على حذف الشوائب لا على إضافة الجديد.

إن قوة الفكرة الدينية تكمن في طابعها المتأصل، إنها تدفعنا إلى الإيمان بها بنفس القوة التي تغوص بها جذورها في أعماق معتقدات آبائنا الأولين الموغلة في القدم؛ ولهذا نرى القرآن؛ فضلاً عن التدليل المنطقي السابق يؤسس دعوته إلى التوحيد على تاريخ الأنبياء في كل الأزمنة السابقة، قال -تعالى- : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال -تعالى- : ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، فيتجلى بوضوح أن العقل والنقل يشاركان القرآن في إثبات عقيدة التوحيد، ورفض الوثنية والإشراك على اختلاف صورهما[١].

ثانيًا: منهجه في الأسماء والصفات:

يرى الدكتور دراز أن الصفات التي ورد النص بإثباتها لله -تعالى- مما لا سبيل للعقل إلى إثباتها، الواجب فيها: الإيمان بها، ثم إما التفويض، وإما التأويل. وزعم أنهما منهجان لأهل السنة في تفسير نصوص الصفات؛ حيث قال:

"أما السلف الصالح فقد اشتهر عنهم أنهم لا يؤولون هذه الظواهر؛ بل يأخذونها

---

(١) ينظر: المدخل إلى القرآن الكريم — عرض تاريخي، وتحليل مقارن-: محمد عبد الله دراز (ص٧٤-٧٧)، ترجمة: محمد عبد العظيم علي، مراجعة: السيد محمد بدوي. دار القلم.

على حقائقها، والواقع أهم لا يمنعون أصل التأويل؛ ولكنهم يسلكون في تأويلها مسلكا علميا متينا يدل على علو كعبهم في الفهم –رضي الله عنهم-.

وأنا أحب أن أفسره لكم هنا؛ لأنه ينفعكم في مواضع كثيرة.

وبيانه: أنه لما دلت الأدلة القاطعة على مخالفته -تعالى- للحوادث كان هذا قرينة مانعة عن إرادة المعنى الحقيقي المعروف لنا، فإذًا هي مصروفة عن هذا الظاهر، يراد بها معنى مجازي؛ لكننا لم يقم لنا قرينة معينة على تحديد هذا المعنى المجازي: هل المراد به القدرة أم الإرادة؟ أو صفة أخرى لا نعرفها؟ أم ليس هناك مجاز في المفرد يشار به إلى صفة معينة؛ وإنما هو كلام تمثيلي لتربية المهابة في النفوس؟

فكل ذلك سائغ في النظر، وليس هناك دليل يعين واحدًا بخصوصه من هذه المعاني؛ لذلك وجب أن نقف حيث وقف بنا الدليل، فلنثبت له -تعالى- ما أراده من كلامه على الوجه الذي أراده، مع تنـــزيهه عن المعنى الذي نعرفه من صفات المخلوقين.

ترون من هذا أن السلف يجوزون المعنى الذي ذهب المتأخرون إليه على أنه احتمال يحتمله الكلام؛ ولكنهم لا يلتزمون إلتزامًا؛ لأن القول بالالتزام قول بغير دليل؛ فلذلك سكتوا عن الخوض في تحديد معاني هذه الظواهر، واكتفوا بمعناها الإجمالي المصروف عن الظاهر"(1).

وقال: "فالواجب –إذًا- في كل النصوص التي تقتضي –ظواهرها- خرق العوائد الجارية؛ ألا نجعل العوائد أصلًا قطعيا نبني عليه الجزم بتأويل تلك النصوص أو ردها؛ بل لنا سعة في أحد أمرين:

إما أن نصدق بها على حسب ما أراد الله منها، ونكل علمها إلى عالمه، كما هو ظاهر قوله:﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران من الآية:

(1) ينظر: المختار من كنوز السنة: محمد عبد الله دراز (ص١٨٦، ١٨٧).

٧]. وهذا هو طريق الصحابة – رضي الله عنهم–؛ فإنه لم ينقل عنهم إلا الإيمان بهذه السمعيات والصفات من غير بحث عن مادة الميزان، وكيفية الوزن، وعينية الصفات، وغيريتها، إلى أشباه ذلك.

وإما أن نتأولها بتأويل قريب مع الإقرار بإمكان مقتضى الظاهر"(١).

ثالثًا: منهجه فيما يتعلق بالنبوات:

يقول الدكتور دراز في ذلك: "إن مهمة رسل الله الأساسية: بث الإيمان الصحيح بأن هناك إلهًا واحدًا. وتوطيد العدالة بين الناس.

وتنبعث وحدة الإيمان من إله واحد، وتخلق مجموعة متحدة من الأنبياء، وأتباعهم يشكلون معًا أمة روحانية فذة –هي أمة الإسلام–، وهكذا يقول الله في كتابه العزيز بعد أن عدد الأنبياء من نوح إلى عيسى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]" (٢).

ويقول أيضًا: "إن القرآن ركز على هذه الفكرة تركيزًا كبيرًا، وأكد صراحة أن جميع الأنبياء أمة واحدة مجتمعة تحت لواء الله – سبحانه وتعالى–: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، وأن هذه الوحدة كانت تجمع سائر الناس فيما مضى؛ وإنما الأجيال اللاحقة هي التي بذرت الخلاف والفرقة، إما بنسيان حظ من التعاليم الربانية، أو نتيجة الأساليب الردئية التي عرضت بها هذه التعاليم، أو بدافع الغرور والمصالح الذاتية"(٣).

---

(١) ينظر: الميزان بين السنة والبدعة: محمد عبد الله دراز (ص٩٣).
(٢) ينظر: أصل الإسلام (ص٥).
(٣) ينظر: المدخل إلى القرآن (ص٧٢).

محمد ﷺ.. ومعجزة القرآن:

تكلم دراز عن دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ، وذكر منها:

- القرآن الكريم: معجزة رسولنا ﷺالباقية الخالدة الذي لا تنقضي عجائبه، قال -تعالى- : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢].

يقول الدكتور دراز في ذلك: "كثيرًا ما كانت مسألة المعجزات بالنسبة لمحمد ﷺ موضوع بحث وجدل. فهل قام الرسول بمعجزة غير القرآن؟ إن القرآن الذي أعلن على العالم بصوت محمد لمعجزة؛ بل إنه المعجزة! كل شيء يبرهن على ذلك: أسلوبه، ومحتوياته، والأحداث غير المألوفة التي أنـــزل بها، وبها لقنت آياته ودونت كلماته، ثم مطابقته الدائمة لحقائق الماضي والحاضر والمستقبل، وميزة تساميه وترفعه مما لا يدل أبدًا على أثر لرجل معين أو مجتمع واحد أو حقبة من التاريخ أو منطقة معينة من الكرة الأرضية.

وليس القرآن حدثًا عابرًا في التاريخ يظهر يومًا ويختفي في اليوم التالي، ولا شيئًا يتناقله الرواة وحدهم بشيء من الصدق قل أو كثر، كلا! بل إنه لحقيقة ثابتة راسخة، باقية على مر العصور وكر الدهور دون أن يطرأ عليها تغيير أو تبديل، وسيظل مثار إعجاب جميع الناس الذين به يتأملون وفيه يفكرون.

ليس القرآن مثار دهشة مؤقتة، ولا شيئًا يخدع العقل، ولا أمرًا غريبًا عن المعلومات الجديدة التي بدأت تسيطر على الناس؛ بل إنه الحق، الحق الذي يبرهن على أصله الإلهي"(١).

وقد عرض الدكتور دراز للأحوال المباشرة التي كان يظهر فيها القرآن على لسان

(١) ينظر: أصل الإسلام (ص٢١، ٢٢).

محمد بن عبد الله –صلوات الله وسلامه عليه–، وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر إليه، فكانوا يرونه:

قد احمر وجهه فجأة – وأخذته البُرحَاء – حتى يتفصد جبينهُ عرقًا – وثقل جسمه حتى يكاد يَرُض فخذه الجالس إلى جانبه – وحتى لو كان راكبًا لبركت راحلته – وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتًا مختلطة تشبه دوي النحل، ثم لا يلبث أن تسري عنه تلك الشدة، فإذا هو يتلو قرآنًا جديدًا، وذكرًا محدثًا.

هذه الأوصاف كلها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عن الشيخين وأبي داود والترمذي وغيرهم.

ويستنتج الدكتور دراز من هذه الأوصاف أنها حالة غير اختيارية، وعارض غير عادي، فلا بد –إذًا– أن يكون وراءها مصدر نوراني يمد هذه النفس المحمدية بين آن وآن، ويزودها بما شاء الله من العلوم. ثم يرسلها إلى أن يلاقيها مرة أخرى، فهي –إذً– قوة خارجية؛ لأنها لا تتصل بهذه النفس المحمدية إلا حينًا بعد حين، وهي لا محالة قوة عالمة؛ لأنها توحي إليه علمًا.

وهي قوة أعلى من قوته؛ لأنها تحدث في نفسه وفي بدنه تلك الآثار العظيمة﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [النجم: ٥، ٦].

وهي قوة خيّرة معصومة؛ لأنها لا توحي إلا بالحق، ولا تأمر إلا بالرشد. ولو كانت هذه الظاهرة شريرة لنسبت إلى الجن، والسماء مرصودة بشهب تحول دون استماعهم، ولا يتناسب الشر مع طهر النبي وسموه.

فماذا عسى أن تكون هذه القوة إن لم تكن قوة ملك كريم؟

فالذي يؤمن بالغيب يؤمن بالنبوة، وينكرها من أوتي قليلاً من العلم، فظن أنه أوتي

كل شيء[1].

ويذكر الدكتور دراز أن القرآن لا يمكن أن يكون إيحاءً ذاتيا من نفس محمد ﷺ، وبرهن على ذلك أن الأخبار الغيبية التي يأتي بها عن الماضيين، لا يمكن أن تأتي من التأمل الذاتي ومن الفطنة، وقد كان النبي ﷺ أُميًّا لم يقرأ في كتاب، ولم يتعلم على أحد، ولا سمع ذلك من إنسان.

ومجمل أخبار القرآن كان معروفًا؛ ولكن التفاصيل الدقيقة، والكنوز المدفونة في بطون الكتب لم يكن ليعرفها مثله؛ كلبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وبقاءِ أهل الكهف ثلاثمائة سنة شمسية تزيد تسعًا قمرية.

هذا فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية، وأن سبيلها هو النقل لا العقل، أما فيما يتعلق بالمعلومات الدينية، فهناك تفصيلات عن الجنة والنار، وحدود الإيمان، والملائكة، ووصف لبدء الخلق ونهايته، وافقت ما في الكتب السماوية الأخرى، قال -تعالى- : ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر من الآية: ٣١]، ولا يعقل أن يدركها -إذا لم يكن نبيًا- إلا بالتعليم؛ ولكن هذا التعليم لم يحصل له.

أما النبوءات الغيبية، فلا يمكن أن يجزم بها إلا من كان لا يخشى الفضيحة إذا كان كاذبًا، أو من اتخذ عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده. وتلك سنة الأنبياء والمرسلين.

ويدل على ذلك أن أخباره كانت كلها صادقة، ولم تكن خليطًا من الصدق والكذب، كما يفعل الخراصون أو المتكهنون.

ثم يضرب الدكتور دراز ثلاثة أنواع من النبؤات تدل على ذلك:

أ- ما يتعلق بمستقبل الإسلام.

(١) ينظر: النبأ العظيم (ص٨٦-٩٣).

ب- ما يتعلق بمستقبل حزب الله.

ج- ما يتعلق بمستقبل حزب الشيطان.

فمن الأمثلة على النبؤات المتعلقة بالإسلام:

١- ما جاء في التحدي بهذا القرآن، وتعجيز العالم كله عن الإتيان بمثله: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقوله: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾ [البقرة من الآية: ٢٤].

فانظر هذا النفي المؤكد؛ بل الحكم المؤبد! على أهل عصره؛ بل على العصور القادمة إلى يوم القيامة، وعلى الإنس والجن! هذا التحدي لا يتقدم إليه إلا رجل مؤيد بخبر السماء. فكانت هي القضاء المبرم، فلم يهم بمعارضته أحد إلا باء بالعجز الواضح، والفشل الفاضح على مد العصور والدهور.

٢- ومن الأمثلة على النوع الثاني: مستقبل المسلمين: حزب الرحمن: قوله -تعالى-: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾[الروم: ١-٥]، فجمع بين نصرين بعيدين عن تصديق الناس، ووقوعهما مقترنين في يوم؛ لذلك أكده أعظم التأكيد بقوله: ﴿ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الروم: ٦]. ولقد صدق الله وعده، ونصر الروم على الفرس، ونصر -المسلمين على المشركين في غزوة بدر، وفي أقل من تسع سنين(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب: ومن سورة الروم (٣٤٣/٥) رقم (٣١٩٢)، وصحح الألباني في "صحيح الترمذي" (٢٥٥٠).

٣- ومن الأمثلة على النوع الثالث: مستقبل المشركين: استعصى المشركون على النبي ﷺ، فدعا عليهم بسنين كسني يوسف، فكان جواب هذا الدعاء قوله -تعالى- : ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الدخان: ١٠، ١١]، فأصابهم القحط؛ حتى أكلوا العظام؛ وحتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد(١). ثم **قال -تعالى- بعد ذلك**: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان: ١٥، ١٦].

هكذا خفف الله عنهم، ثم عادوا إلى مكرهم، فانتقم الله منهم.

وتارة يعين القرآن نوع العذاب بأنه الهزيمة الحربية، كما في قوله: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٥]؛ حتى أن عمر رضي الله عنه لما نـــزلت هذه الآية جعل يقول: أيُّ جمع هذا؟ قال: فلما كان يوم بدر، رأيت رسول الله ﷺ وسلم يقولها(٢).

فانظر إلى عجيب شأن النبوءات القرآنية كيف تخبر عن المستقبل قريبًا وبعيدًا، وتتحكم في طبيعة الحوادث توقيتًا وتأبيدًا، وكيف يكون الدهر مصداقًا لها فيما قل وكثر، وفيما قرب وبعد؟!

أترى هذا النبي الأمي جاء بهذا الحديث كله من عند نفسه؟ لا بد أنه جاء به من مصدر وثيق.

والأنبياء -عليهم السلام- قد يخطئون فيما عدا تبليغ الوحي إذا اجتهدوا رأيهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب: تفسير القرآن، باب: {يغشى الناس هذا عذاب أليم} [الدخان: ١١] (١٣٦/٦) رقم (٤٨٢١)، ومسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: الدخان (٢١٥٦/٤) رقم (٢٧٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: {بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر} [القمر: ٤٦] (رقم ٤٨٧٧).

أصابت فراستهم حينًا وأخطأت حينًا. اسمع قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعن نفسه: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلى، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها**»[1]. وليس كذلك ما يبنى به القرآن، فكله صواب، ومعصوم من التغيير والتبديل، كما في قوله -تعالى- : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢][2].

رابعًا: منهجه في الإيمان بالجنة والنار:

أشار الدكتور دراز إلى أن الجنة والنار حق[3]؛ ولكنه يرى أن طلب الجنة والفرار من النار ليس هدفًا؛ لأن ذلك عنده يعتبر نقصًا في التوحيد، وأن هذه أمور تليق بالعوام فقط، أما إلخواص فلا ينبغي لهم النـــزول إلى هذه الدرجة.

ومن ذلك قوله: "ولكنني أحذر هؤلاء السذج من عامة المؤمنين الذين لا يسوقهم إلى أداء واجبهم إلا انتظار بركته، ويمنه في هذه العاجلة، أو طلب الجنة ونعيمها، ولا يمنعهم من ارتكاب المحرم إلا إلخوف من شؤم في هذه الحياة، أو الهرب من النار وآلامها..

أحذر هؤلاء.. وأعلن إليهم بلسان القرآن، أن هذه النية التي ينطوون عليها، لا قيمة لها في نظر القرآنن ولا ثواب لها عند الله، ولو شئت لقلت لهم مقالة كبار الصوفية والزاهدين؛ إنها نية آثمة، تشرك مع الله حظوظ النفوس وأهواءها، وإن لها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأحكام، باب: من قضي له بحق أخيه فلا يأخذه، فإن قضاء الحاكم لا يحل حراما ولا يحرم حلالا،(٩/٧٢) رقم (٧١٨١)، ومسلم، كتاب: الأقضية، باب: الحكم بالظاهر، واللحن بالحجة(٣/ ١٣٣٧) رقم (١٧١٣).

(٢) ينظر: النبأ العظيم (ص٣٨-٦٦).

(٣) ينظر: المختار من كنوز النسة (ص١١٤).

عقابًا كعقاب نية الإيذاء والرؤساء.. غير أني أكتفي بأن أقول مع المقتصدين من أهل العلم، إنها نية تافهة لا ثواب لها، وإن شغل القلب بها، شغل له بمباح لا وزن له في ميزان الحسنات، وكيف يرضى عاقل حريص على الخير أن يضيع عمله هكذا هباء، وقد كان له أن يزداد به رفعة في الدرجات؟ ولكن أكثرنا وأسفاه راضون بهذه المنـــزلة النازلة.

ثم يقول: إن هذه الثواب الموعود ليس لمن طلب الثواب؛ وإنما هو كما صرح القرآن به غير مرة –لمن أراد بعمله وجه الله خالصًا– إنه لمقام رفيع كريم، لا يناله إلا الصائمون في عباداتهم عن حقوقهم: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٥]"(١).

وقال في موضع آخر: "فإن الناس كثيرًا ما يلتبس عليهم الأمر بين أجزية العمل وثمراته من جهة، وبين أهداف العامل وغاياته من جهة أخرى، وهكذا يخطلون بين الغاية الفعلية، بمعنى: طرف الطريق وآخره، والغاية القصدية، بمعنى: نية العامل وهدفه، ظانين أن وضع أحدهما هو وضع للأخرى حتى كأن الإسلام يلوح للمؤمنين أن يقصدوا بأعمالهم تلك النتائج كلها، أو بعضها على التخيير. كلا إن الأمر ليس كما زعموا، فأنواع الأجزية التي قررها القرآن للفضيلة والرذيلة لا تحصى –كثرة–؛ ولكن الهدف الذي وضعه نصب عين العامل هدف واحد لا تعدد فيه ولا تردد: هو وجه الله محضًا خالصًا.

وهذا –كما ترى– تعبير روحي عن معنى أداء الواجب لذاته، وهو معنى نجده في القرآن في أكثر من ألف موضع، كلها تحث على الفضيلة لما لها من قيمة ذاتية، بغض النظر عن كل آثارها.

(١) ينظر: حصاد قلم: ص٣٢٠، ٣٢١ (بتصرف).

على أن تلك الأجزية الكريمة التي وعد الله بها المتقين؛ إنما وعد بها من كانت غايته من عمله هو وجه الله وحده، فهو الذي ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٩]، وقد سئل النبي ﷺ عن الجهاد بدافع الحمية، أو لطلب الغنيمة، أو بقصد الذكر، فأوما إلى أن شيئًا من ذلك ليس في سبيل الله، قائلًا: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١). أما وراء هذه النية من مطامح ومطامع فهو في نظر الإسلام إما رجس وفسوق من عمل الشيطان: كالرياء، والسمعة، ونحوهما. وإما عبث وضرب من المباح الذي لا قيمة له ولا ثواب، ومن هذا الضرب الأخير أن يكون هدف العامل هو الجنة وما فيها من نعيم"(٢).

ويضرب الدكتور دراز مثالاً لذلك بثلاثة نفر، كلهم يقوم بواجبات البر، والتقوى، والعدل، والإحسان،...

فأما أحدهم؛ فإنه يفعل ذلك امتثالاً لأمر ربه، وسعيًا في تزكية نفسه، واستصلاحًا لشأن أمته، لا خوفًا من سلطان، ولا حذرًا من عقوبة أو من حرمان، ولا اجتلابًا لثناء أو لجزاء؛ ولكن نـــزيهًا مجردًا عن كل غرض، مبرأ القصد عن كل عَرض، فتلك نية خيرة مبرورة، وصاحبها بأعلى منـــزلة، فهو: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الليل: ١٧-٢١].

وأما الآخر؛ فإنه يؤدي عمله خداعًا أو رياءً للناس؛ اتقاءً لسخطهم، أو التماسًا لثنائهم، أو طمعًا فيما بأيديهم، أو طلبًا للمنـــزلة والحظوة عندهم... فهذه نية آثمة، شريرة، وصاحبها بأحط منـــزلة: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٢٠/٤) رقم (٢٦٥٥)، ومسلم، كتاب: الإمارة، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا رقم (١٩٠٤).

(٢) ينظر: دراسات إسلامية: محمد عبد الله دراز (ص١٢٣).

﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الماعون: ٤-٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [النساء من الآية: ٣٨].

وأما الثالث؛ فإنه يؤدي حق ربه خوفًا من ناره، أو طمعًا في جنته، كما يعمل عبد العصا خوفًا من العصا، أو كما يعمل عبد الدرهم طمعًا في الدرهم، فهذه نية بين بين، لا نجد في القرآن تنويهًا بشأنها، ولا تشويهًا لأمرها، ولا مدحًا ولا قدحًا، فقصارى حظ صاحبها –فيما نرى– أن يخرج بها كفافاً لا له ولا عليه(١).

* * *

(١) ينظر: من خُلِقِ القرآن (ص٢٣٤، ٢٣٥).

الخاتمة

هكذا يتضح من خلال العرض السابق سعة أفق الدكتور محمد عبدالله دراز وعمق فهمه، وكذلك كثرة اطلاعه وثقافته وفهمه للغة، وأدبه في الخلاف مع سابقيه؛ حيث يقرر أقوالهم ويستشهد لهم، ثم بأدب جم يتناول رأيه ويسشهد له دون أن يخطئ مخالفيه، كما يمكن وضع نقاط خلص إليها الباحث أهمها:

١- أنه لا يدع عنصراً من هذه العناصر التي تناولها في تفسيره وتتعلق بالعقيدة إلا بعد أن يدعمه بدعامة قوية مقنعة.

٢- أن الدكتور محمد عبد الله دراز يستعمل خطاب العقل والعاطفة معًا، والوارد لاستدلالات القرآن في بناء العقائد، وتصحيح الأفكار، وغربلة الشبهات.

٣- أنه يستخدم الاستدلال بالعقل مع النقل، ويستعمل الأقيسة المنطقية الصحيحة.

* * *

فهرس المصادر والمراجع

١- **أصل الإسلام وعقيدة التوحيد**، محمد بن عبد الله المسعري، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٤، الناشر: تنظيم التجديد الإسلامي، لندن.

٢- **الجامع الصحيح المختصر**، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٣- **تاج العروس من جواهر القاموس**: الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية للنشر، الكويت.

٤- **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٥- **حصاد قلم**، محمد عبد الله دراز، جمع وإعداد وتحقيق: أحمد مصطفى فضلية، مراجعة وتقديم: عبدالستار فتح الله سعيد، دار القلم- الكويت، ط١. ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

٦- **دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية**: محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت.

٧- **دستور الأخلاق في القرآن** (دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن)، محمد عبدالله دراز، تعريب وتحقيق وتعليق: عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة.

٨- **الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت.

٩- **مختار الصحاح**، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٠- **القاموس المحيط**، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين، محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٥م.

١١- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**: (ط. الأوقاف السعودية)، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م.

١٢- **الفتاوى الكبرى**، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، دار المعرفة- بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.

١٣- **المختار من كنوز السنة النبوية**، مطبعة محمد هاشم الكتبي، ١٣٩٧هـ، عني بنشره عبدالله بن إبراهيم الأنصاري – مدير الشؤون الدينية لدولة قطر.

١٤- **من خلق القرآن**، محمد عبدالله دراز. تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاري، مطبوعات إدارة الشئون الدينية بدولة قطر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٥- **الميزان بين السنة والبدعة**: محمد عبدالله دراز، الطبعة الثالثة٢٠١٠م، تحقيق: أحمد مصطفى فضلية، دار القلم، الكويت.

١٦- **النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن)**، محمد عبد الله دراز، دار الثقافة- الدوحة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

١٧- **نظرات في الإسلام**: محمد عبد الله دراز، الطبعة، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

* * *